أدب الاعتراف
كتاب (الأيام) مثالاً
دراسة موضوعية وفنية

ياسر عمار مهدي
مدرس مساعد
ماجستير أدب حديث

جامعة ديالى / كلية التربية
قسم اللغة العربية

الكتابة فعل إنساني ونشاط ذهني بدأ مع تلك الرسومات التي رسم أشكالها إنسان الكهف الأول ولم يستنفد نشاطه منذ ذلك الوقت حتى عند شاشات

الحاسبات الالكترونية بل بقي نشاطه متقداً لم تمحه انجازات العصر الحديث بكل مسمياتها .

وعند الحديث عن الكتابة فإننا نقصد بها الوعي البشري في محاكاته للعالم المحيط به ، ثم وهو يحاول فهمه فهماً ذهنياً مدركا ًلمحركاته التي تؤثر فيه ومن ثم التحكم بما يستطيع منه فضلاً عن أن الحديث عن الكتابة هو حديث عن مدركات النفس الإنسانية وهي تحاور الخارج المخيف والمطمئن ثم وهي تحاور الداخل القلق والمتطلع لآفاق نائية وعوالم أخرى بعيداً عن إحساساته ومدركاته الذهنية والعقلية.

والكتابة في أنساقها ودلالاتها تلك هي مجموعة كتابات مختلفة في بنائها المعياري وأنظمتها الاشارية كما أنّها مختلفة في موضوعاتها ووظائفها كما تبدو مختلفة في الأدوات المستخدمة فيها (عظام حيوانات ، وأختام اسطوانية ، ومفاتيح وأقلام وقصب مثقف ، وألواح طينية وجدران وورق وجلود وشاشات ....) .

وعلى الرغم من تلك الاختلافات في اللغات بتنوع مسمياتها وأنظمتها واختلاف موضوعاتها ووظائفها وأدواتها المعيارية يظل ثمة قاسم مشترك لكل تلك الكتابات هو الإنسان بوصفه بؤرة مركزية تحوم حولها فكل ما هو متعلق بها رهن به ، إذ إنّ الإنسان يبقى هو محور الكتابة بما يختلج في نفسه من عوالم ورؤى وهموم وأوهام وأماني وغيرها ، ولأنه كذلك فهي في الكتابة مؤثرات نجد تأثيرها فيما فعله ويفعله الزمن في الإنسان من تغيير في الوعي لإدراك ماهية الكون والإمكانات الفنية والتعبيرية في خلق عالم أدبي يكون معادلاً موضوعياً للواقع المعيش .

وهكذا كان الخطاب الأدبي سجلاً للتاريخ البشري ودالة أساسية من دوال الحضور والوجود البشري التي تعبر عن التحولات التي طرأت عليه فضلاً عن انها مؤشر واضح على نشاطه ومجالاته واهتماماته ولأنها كذلك تنوعت أساليب

الكتابة الأدبية وصار لها مواصفات ومقاييس وقوانين خاصة بها ، وهو ما أدى إلى بروز أنماط وأساليب من التخصص في بنياتها وسماتها ودلالاتها الفنية والمعرفية ، ففي مجال الأدب تتنوع الحقول الأدبية إلى شعر وقصة ورواية ونقد وتتعدد تلك الأطر الفنية في طرائقها الأسلوبية في الحقل المعرفي الواحد فتنتج في الرواية كفن تعبيري عن تلك المدلولات في تنوعها الأسلوبي المتميز عن غيره من الفنون الأدبية ، وهكذا اكتسبت الكتابة تنوع الحياة نفسها في قوانينها ومحدداتها ومساراتها .

وهكذا صار الخطاب الأدبي المكتوب أقرب ما يكون إلى المعادلة الرياضية التي تختزل الموجودات في رموز وتعبر عن تفاعل الموجودات بإشارات لكل منها دلالته الخاصة والمحددة التي تجعل الحوار ممكناً حتى باختلاف لغة المتحاورين مثلما هو شأن الموسيقى والرسم .

والكتابة بتعبير أخر هندسة ومعمار للوعي البشري فهي مشاهد للداخل الإنساني ومسارات برهنة لمقولات العقل – وهي وعاء الحزن الإنساني كما هي وعاء أمال الإنسان وأمنياته – وهذا ما يدفعنا للقول : إن الإنسان حيثما ابتدع الكتابة إنّما كان يضع خطواته الأولى باتجاه زمن هو سائرٌ إليه حتى ولو أفني بدنه ، فهو إذن ، كان يفتح بوابة الخلود في الوقت نفسه الذي كان يخبئ فيه أمانيه للآتين بعده .

والكتابة من خلال ما تقدم ذكره لم تكن ترفاً إنسانياً أو لهواً يملأ به الإنسان زمناً خاوياً ، بل هي ديمومة وحوار وتواصل يتجاوز الآن الحاضر إلى آفاق المستقبل ، والكتابة إذن هي تجاوز الفناء إلى الخلود ، كما إنها حضور الآنات الماضية في آن الفعل الحاضر .... وهي بذلك حضور التراث المعرفي البشري في كل لحظة صيرورة .

وأدب السيرة الذاتية نوع من الكتابة كثيراً ما ينظر إليه على انه نوع (ثانوي) وهذه المسألة مرتبطة إلى حد بعيد بظروف موضوعية لا تخص الكاتب وحده ، وإنما تخص الجميع ، من هذه الظروف : الحرية الشخصية ومدى احتياز الفرد لها وهي مرتبطة أيضاً بتبلور ذات الفرد بما يتيح له أن يجهر بتجربة خاصة مهما بلغت طرافتها أو جرأتها من دون خوف أوخجل[١] .

وقد نجد عدداً كبيراً من الذين كتبوا سيرهم الذاتية السياسية وهم لا يعنوننا بهذا الصدد لأنهم نحوا أنفسهم جانباً وتحدثوا عن كل شيء باستثناء حقائق وجودهم من الداخل وما يتبع ذلك من تجارب روحية عميقة ، ويبرز أمامنا سؤال لماذا يُسرع بعض الشعراء والكتاب إلى تدوين تجاربهم قبل الموت ؟ هل يفعلون ذلك دفاعاً عن أنفسهم وتوضيحاً لما قد يلتبس على الآخرين بعد الموت ؟

وقد عرف تاريخ أدبنا العربي الحديث هذا النوع من الكتابة الاعترافية لكن من كتبوا سيرهم من الأسلاف احتجبوا خلف ما كتبوا فكانت سيرهم ذات طابع معرفي عام تتناول معلميهم وأسفارهم وعلاقتهم بالسلطان ، وقد يذكرون بعض الطرائف لكنهم كما نرى يحتجبون خلف اعترافاتهم العقلية ، أو يحجبون السري والباطني من تجاربهم ، وتبرز سيرة حياة ابن سينا القصيرة لكن الغنية بتجربتها المعرفية كمثال لهذا النوع من الكتابة ، وعلم النفس الحديث لا ينظر إلى السيرة نظرة المتلقي الذي يلهو ويتسلى بأخبار واعترافات شخص ما ، انه بهواجسه الانتهاكية يثقب سطح الاعترافات بحثاً عن مناطق (الظل) التي لم تتسرب في السيرة ، ومن ذلك بعض الآراء في سيرة اعترافات جان جاك روسو ... التي قيل بالرغم من صراحة كاتبها انه لجأ إلى إضاءة جوانب وحفرها بشكل بارز من أجل تظليل جوانب أخرى أرادها أن تبقى في الظلام [٢] .

ولعل كتاب الدكتور طه حسين (الأيام) كان إحدى المحاولات المبكرة من هذا اللون من الكتابة في أدبنا العربي الحديث ، وإذا اعتبرنا (الأيام) كتاباً في الاعتراف لوجدنا انه لا يقول الكثير عن حياة يفترض فيها الغنى والتفرد وعمق التجربة ، وحين ترجم كتاب (الأيام) إلى الفرنسية أثار استغراب بعض من قرأوه ، لأنه كما يذكر الدكتور لويس عوض : تصور مؤلفه د . طه حسين نفسه جريئاً حين اعترف بأنه كان يأكل العسل الأسود ، ويعاني من طفولة بائسة . ويجد لويس عوض لمؤلف (الأيام) عذراً ، فكون الرجل عاش في بيئة مغلقة متزمتة لا تتسامح مع مثله حين ينأى عن الحد المتعارف عليه ، ويقول كل ما أحس به وخبره في طفولته ومراهقته .

ويجد د . لويس عوض عذراً لما يجده لصاحب (الأيام) ليؤكد ارتباط حرية البوح والاعتراف عند الكاتب بالظروف الاجتماعية في بلاده ...وبالقدر المتحقق من الحرية الشخصية لأفراد هذا المجتمع .

إن أدب الاعتراف ليس وصفاً واقعياً دقيقاً لأحداث وقعت لأن للمخيلة دوراً لا يستهان به في كتابة المذكرات إذ إننا في مرحلة نضجنا الفكري والنفسي نرى الماضي بصورة مغايرة لصورته الموضوعية كما نعطيه من خبرتنا الكثير ونكسوه من دربة حاضرنا ومهاراته ما يجعله يظهر بصورة مغايرة لما كان عليه ، ووفقاً لهذا التصور أطلق (جيته) على يومياته (الشعر والحقيقة) موحياً بذلك لقرائه بأن المذكرات أو (السيرة) هي مزج بين المتخيل والواقعي . ويبرز سؤال في هذا الشأن عند حديثنا عن حدود الخيال (المسموح بها) في كتابة هذا اللون من الأدب ، إلى أي حد يمكن للخيال أن يتدخل في تجميل أو تعميق الصورة التي يرسمها الكاتب بقلمه لأحداث مضت وطواها النسيان في أعماق الذاكرة لكي تظهر من جديد متشحة بغلالة من نسيج خيال وعقل وإرادة الكاتب في ذروة نضجه ، وما له من دور في تعميق وتجميل تلك الصورة ؟

إن الذي يجب الإشارة إليه إن الإسراف في اعادة خلق الأحداث وصياغتها وفقاً للوعي الراهن هو بمثابة ابتداع جديد لماضٍ جديد ، وابتداع لتجارب متخيلة ومشتهاة لكننا لم نعشها في الواقع فهي تظهر بحلة قشيبة غير حلتها القديمة .

والمبدع – الكاتب في اعترافاته تلك لا يقول كل ما لديه من خلال وسيلته التعبيرية فهو قد يغفل شيئاً مهماً أفلت من سطور تجربته التي تحولت إلى فن إذ أن ثمة على الدوام جزءاً من هذه التجربة ينتشي به ذلك الكاتب ويترسب هو وقرائنه بعيدا ًفي أعماق ذاكرته أو اللاوعي ، وقد يحدث العكس من ذلك كأن يصبح الجزء الأهم من التجربة خارج الإبداع بمعنى الأنواع الأدبية المعروفة

(النصـوص) ، عندئـذ تصـبح المـذكرات تلـك علـى سـبيل المثـال أهـم مـن (النصوص) عند مؤلف معين ، ولعل ناقدي (شاتو بريان) عنوا شيئاً كهذا عندما فضلوا مذكراته على سائر أعماله .

لقد مرت حياتنا الاجتماعية بتحولات ، وفي بعض الأحيان إنفجارات غيرت في تركيب بناء الأسرة والنظرة إلى الدين والجنس والحياة والموت والناس وكل المحاور الأخرى في مسرحية الحياة الإنسانية .. وقد وجدت آثارها منعكسة إلى حد ما على وسائل التعبير في الأدب إذ ظهرت أشكال وغربت وأفلت مدارس واتجاهات وولدت أخرى غيرها ، لكن ثالوث (العيب والممنوع والحرام) ظل يحاصر كّتاب الاعترافات الذين يحملون إلى قبورهم أغنى أسرارهم الجسدية والاجتماعية بعيداً عن نظرات القرّاء المتشوقة لقراءة تلك المغاور المجهولة التي يكتنفها ضباب العتمة وستار التحفظ والكتمان .

ويبرر (د. عبد الرحمن بدوي) هذا التفاوت بين التراجم الذاتية عند العرب وعند سواهم بقوله : الفارق بين الروح الآرية والروح السامية كالفارق بين المخلوط والمزيج في لغة الكيمياء ، عناصر الروح السامية منفصلة عن بعضها ، لا تتفاعل إلا بمقدار ضئيل بينما هي في الروح الآرية مرتبطة ومتحدة كأقوى ما يكون الاتحاد [٣] .

ويظهر من قول الدكتور عبد الرحمن بدوي في عقده لتلك المقارنة إن الشخصية السامية مضطربة وغامضة وخالية من الوضوح والقوة ، لهذا نرى ندرة التراجم الذاتية في تاريخ أدبنا العربي الحديث .

وهذا التفسير لا يمكن الركون إليه إذ يظل في حدود المطلقات غير العلمية لأنه ليس هنالك ثوابت في الطبيعة الإنسانية إلا إذا انطلقنا من أفكار عنصرية في مرجعيتها الأخيرة ، وهذا ما لا يمكن إن يعول عليه في حدود التفكير المنطقي السليم ، والمتحرر من ربقة الاستخذاء أمام ما كل هو أجنبي وغير عربي إذ لا

يصلح أن يكون منطلقاً في تأكيد حقيقة غير ثابتة وتخضع لمنطق النفس البشرية بكل تقلباتها ومزاياها غير المنضبطة والتي توصف بزئبقية لا تثبت عند درجة معينة ، وخير مثال على ذلك ما جاء في تجربة الاعتراف التي سطرها الكاتب المغربي (محمد شكري) في (الخبز الحافي) والتي عبرت عن حياة ذلك الكاتب بكل ما فيها من قسوة اعتراف تصل لحد المبالغة اذ لا تقل تلك الاعترافات جرأةً عن اعترافات تنسي وليامز أو (يوميات لص) لجينيه الفرنسي ، وهذا ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه في الرد على رأي الدكتور عبد الرحمن بدوي في بيانه للفرق بين تراجم العرب الذاتية وعند سواهم من الشعوب الاخرى غير العربية .

والدكتور طه حسين أديب مصري ولد في (مصر العليا) سنة١٨٨٩ م وفقد بصره وهو ما يزال طفلاً . درس في الأزهر ثم في الجامعة المصرّية ثمّ في السوربون بباريس ونال أعلى الدرجات العلّمية . في سنة ١٩٢٥ م عين أستاذاً في الجامعة المصرية ، ثمّ انتدب عميداً لها ثمّ مديراً لجامعة الإسكندرية ، وفي سنة ١٩٥٠ م وزيراً للتعليم ، توفي سنة ١٩٧٣م [٤] تاركاً وراءه مؤلفات عديدة متنوعة في الأدب والتربية والدين والنقد وغيرها ومنها كتابه (الأيام) مدار بحثنا هذا الذي سنقوم بدراسته دراسة موضوعية وفنية نحاول أن نستجلي بعضاً مما لم تتناوله أقلام الكتّاب والباحثين إذ ترك أديبنا الكبير طه حسين تراثاً ضخماً من القصص والروايات التي وجد بعضها طريقه للنتاج السينمي ليصبح فيلماً يعرض في دور العرض يستمتع بها المشاهد سواء أكان متعلماً أم غير حائز على تأهيل دراسي يساعده في ادراك تلك القيم الجمالية التي نفثها قلم أديبنا الكبير في ساعات إبداعه وتألقه الفكري .

وقد أهتم الدكتور طه حسين بالسيرة الذاتية أو ما يسمى الآن بـ (أدب الاعتراف) في كتابه (الأيام) في ثلاثة أجزاء يروي لنا فيه كاتبهُ أحداث حياته

الأولى أي من نحو الخامسة من عمره إلى نحو الثلاثين ، أي إلى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى [٥] .

وقد تناول الجزء الأول سنين طفولته وما جرى فيها من أحداث ، فيذكر طه حسين البيت الصعيدي الأول الذي نشأ وترعرع فيه ، والسياج الذي كان يمنعه من الانطلاق نحو رحاب دنياه الفسيحة ، والمزرعة التي كانت تمتد خضراء في حلتها القشيبة ، والقناة التي كانت تنتهي إليها دنياه ، ويذكر انه كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وإحساسه بعجزه عما كان يستطيعه أخوته وأخوانه ، ويصف لنا غضبه عندما تأذن أمه بأشياء تحظر ممارستها عليه لعاهته التي أصيب بها في بصره فجعله لا يبصر من دنياه سوى أصوات ليس لها صورة والذي جعل من فقده لبصره حزناً ، صامتاً ، عميقاً في نفسه التواقة لعناق العالم بكل مسمياته ومدركاته ! ولكن شتان بين ما يريده هذا الكائن الصغير وبين ما فرضه عليه فقد البصر من عجزه وشعوره بالحرمان حين يجتر آلامه بصمت مشوباً بالحسرة والألم .

وقد توغل طه حسين في سبر أغواره الدفينة في أعماقه ليظهر لنا أثر العمى فيها وفي شتى تصرفاته وأحواله الحياتية ، كما أسرف في وصف حاله مع المجتمع الذي يعيش فيه وهو طفل صغير .

أما في الجزء الثاني فيجول بنا طه حسين في رحاب الجامع الأزهر وأدراجه وزواياه ، ويتنقل بنا من حلقة نحو ، إلى حلقة فقه ، إلى حلقة لغة ، إلى غير ذلك من مجتمعات الطلبة الازهريين ، ويصف لنا حياة الازهر من " تعيين المشيخة آخر الاجازة وأول العمل ، والأساتذة بذلك أحرار يبدأون متى أرادوا ومتى استطاعوا ، والطلاب أحرار يقبلون على الدروس متى أحبوا أو متى أتاحت لهم ظروفهم أن يقبلوا عليها " [٦] ، وكثيراً ما يتوجه طه حسين بالنقد اللاذع إلى الأزهر وإدارته ، فيقول مثلاً : " هذا يصور حال هذه الجماعات الضخمة من

أبناء الريف التي كانت تفد على القاهرة لتدرس العلم والدين ما تستطيع ، ولكنها تصيب معها ألواناً من علل الأجسام والأخلاق والعقول " [٧] .

أما الجزء الثالث من كتاب (الأيام) ففيه يحدثنا طه حسين عن فترة جديدة من حياته هي فترة الصراع في سبيل التجديد والانفتاح وفترة الانتقال إلى عالم جديد هو عالم أوربا ، فقد ضاق الفتى ذرعاً بالأزهر ومشيخته ، وتصور لنا فترة الصراع في سبيل التجديد والانفتاح وفترة الانتقال إلى عالم جديد وهو عالم أوربا بما فيه من انفتاح حضاري لم تكن معروفة لدى الشرقيين بما يحملونه من محرمات وأعراف وتقاليد بعيدة عما شاع في الغرب من عادات وتقاليد تختلف عن العادات الشرقية .

وقد اتصل بالأستاذ لطفي السيد وجريدته وبالشيخ عبد العزيز جاويش ، وراح يكتب المقالات النقدية ، ولكن نقّده كان محافظاً إلا في شؤون الأزهر الذي كان يهاجمه طه حسين في غير رفق واعتدال ، ويعبث بشيوخه كلّ العبث بتشجيع الشيخ عبد العزيز جاويش له ، مما أثار حفيظة الأزهريين فعملوا على إسقاطه في امتحان العالمية وعملوا على فصله عن دروس الازهر ، ولكن عبد العزيز جاويش شجعه قائلاً : " لابدّ من أن نصنع شيئاً لإرسالك إلى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام " ، فكان لهذا القول في نفس الفتى اصداء بعيدة ، وعاش بعد ذلك عيشة أمل وانتظار ، وقد انصرف إلى الكتابة في مجلة الشيخ جاويش (الهداية) وراح يقارع على صفحاتها العلماء الذين أنكر مقارعتهم فيما بعد .

وعندما أقيم لخليل مطران احتفال في الجامعة تعّرف إلى الآنسة ميّ زيادة فسعى لحضور مجلسها وقد وجدها " تستقبل الزائرين من الرجال ، حفّيةً بهم ، معاتبةً لهم في رشاقة أي رشاقة ، وفي ظرف أي ظرف ، وفي حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالألباب " [٨] وكان ترحيبه ببروز المرأة على مسرح الحياة الاجتماعية والفكرية ترحيباً لا حد له .

ولم يلبث أن يغرق طه حسين في الكلام على الجامعة وأساتذتها ويهلل لهذه الحياة التي يحياها بشغف ، ويضع رسالته (تجديد ذكرى أبي العلاء) فينال بها درجة الدكتوراه ويصبح سفره إلى فرنسا ضرورة حتمية لا يمكن إغفالها أو التنكر لها .

وفي باريس يكب طه حسين على الدرس والتحصيل ، ويواجه في باريس مصاعب جمة ، ويظل كذلك حتى يلاقي حلم حياته الفتاة التي كانت عينه المبصرة ، وكانت له الزوجة الرفيقة والمخلصة والامينة على أسرار طه حسين وحياته الذي لم يلبث انّ عاد إلى القاهرة بعد نيله دكتوراه وشهادة الدراسة العليا في التاريخ من السوربون ، ويدرّس في الجامعة ، ثم لم يلبث أن خاض غمار السياسة بانضمامه إلى جماعة عدلي باشا فيلقى من جماعة سعد زغلول ، أي جماعة الوفد ، سخطاً : " يراه السعديون مارقاً قد مالأ المارقين ، ويراه القصر كافراً بالنعمة جاحداً للجميل . ويرى هو أنه أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون ... " [٩] .

لقد ذكرنا بعضاً مما جاء في أدب الاعتراف الذي قصه علينا في كتابه (الأيام) وقد كان أسلوبه في سرده رائع الفن ، صريح القول ، ممتع الحديث ، يتتبع الأحداث في نفسه وذاكرته وقلبه وفي مجتمعه ، فيثير فينا عالماً من العناية والاهتمام والإشفاق والانحياز لما يقوله ويفعله ، فنتعاطف معه ونشاركه همومه وأحلامه فنسخط لسخطه ، ونثور لثورته ونأسى لحزنه .

وفي كل هذه الحالات تدهشنا تلك الرصانة التي تلقي ظلالها وتهيمن بشكل كبير على أدب الاعتراف هذا فضلاً عن الإشراق الروحي الذي يمكن أن نتلمسه في تلك الرصانة التي تهيمن عليها ، مع بريق من الشفافية النفسية التي تتراءى من خلال تلك النفس الطيبة وما تختلج فيها من مشاعر إنسانية يتحول لينها إلى ثبات وصمود في نصرة العدل والحق والضعف الإنساني.

وفي كتاب (الأيام) تتجلى تلك المصارحة الاعترافيه التي تحاول أن تروي الحقيقة كما هي من دون مواربة ولا تزيين وفي غير مبالغة ولا مداهنة وتبطين في محاولة لأن تروي الحدث كما هو في الواقع على الرغم من إنها لا تخفي شيئاً فهو يعمد إلى التلميح الواضح إذا كان الموقف قبيحاً ، وهو يحاول أن يجعل من أدبه الاعترافي بأن يلطّف الكلمة والعبارة من غير أن تحدهما في التعبير عن كامل الحقيقة ، وكم في هذه الاعترافات من العذوبة التي تجعل تلك الكلمة مقبولة ، مستساغة ، وان كانت لا تخلو من قسوة .

ويمكن أن نتلمس في هذه الاعترافات مسحة من التهكم في أهداب الألفاظ والأحرف تصدر عن استغراب وإشفاق ، خالية من اللؤم الذي نراه في حديث كثير من الناس .

وتتجلى دقة أديبنا الكبير في حديثه فهو يعمل على استقصاء الأمور وتوضيحها في شتى مناحيها ، وإبرازها خالية من كل غموض ، خالية من كل التباس ، وقد يبالغ أحياناً في التطويل والتفصيل اللذين يثقلان على المتلقي الذي ينشد المتعة أكثر من الاستقصاء .

وينماز كتاب طه حسين (الأيام) بتلك السهولة التي تترقرق في عبارات لينّة الجانب ، وان طالت ، وفي اللفظة التي تنزل في محلها لا لشيء إلا التعبير الدقيق البعيد عن التخيل والتعقيد ، واسلوب طه حسين هو أسلوب الترقرق الهادئ الذي يجري طلياً في انسياب متسلسل ، وفي استطالة مترابطة الحلقات ، وفي تكراره لا يمجه الذوق ولا يستثقله الصدر ، فالقارئ يتلمس في كلّ عبارة من عباراته بأنه قريب منه ، فيقرأه ويتمثله في آن واحد فيطيب له معه تلك القراءة .

وفي كتاب(الأيام) يبدو طه حسين وصّاف من الدرجة الأولى ، ويستحضر في أدبه وكتابته المشاهد استحضاراً دقيقاً ، حافلاً بالواقعية والحياة لا

يكاد يخلو من شيء مّما يسعى إلى إبرازه ، والى التدليل به على ما يشعر به أو يذهب إليه من مواقف أو من آراء .

ومما يجدر الإشارة إليه أن أدب الاعتراف للدكتور طه حسين يتجلى في الانكفاء على الذات ، وهي كأولية دفاعية تسير في اتجاه التقوقع تجاه حالات الفشل الذي يصحبه احساس داخلي بالعجز وقلة الحيلة [١٠] .

ومن خلال قراءة متمعنة لرواية (الأيام) يبدو سرده القصصي " سرداً مهجناً – مفارقة بنائية – أو نسيجاً سردياً جديداً ، تدخل في تكوينه بصورة أساسية المفارقات المتعددة وعناصر وأساليب من الفنون السردية القديمة " [١١] .

وهنا يثار سؤال ملح عن حدود الخيال المسموح بها في كتابة هذا اللون من الأدب وهو إلى أي حد يمكن للخيال أن يتدخل في تجميل أو تعميق الصورة ؟ لأن الإسراف في إعادة خلق الأحداث وصياغتها وفقاً للوعي الراهن هو بمثابة ابتداع جديد لماض جديد ، وابتداع لتجارب متخيلة ومشتهاة لكننا لم نعشها في الواقع .

كما يبرز سؤال آخر : لماذا نستمتع بقراءة ما نثق أنه حقيقي ، أكثر من استمتاعنا بقراءة ما هو محض خيال ، وفيما يتعلق بالسيرة هل نجد في حياة لم نعشها تعويضاً عن حياة محلوم بها ؟ .. وإجابته تتعلق بقدرة الكاتب في رسم صورة فنية لواقع مضى في تلافيف الذاكرة ووجد له فسحةً في ذهن ووعي الكاتب بعد نضجه الأدبي .

إن ما يجب الاشارة اليه في مأزق السيرة الذاتية أو ما يعرف بـ (أدب الاعتراف) في الكتابات الادبية انها لابد أن تشكو من (الترهل) في التفاصيل الحياتية والوصفية من جانب وتلك الاعتذارية التي همها تخفيف حدة التوصيف الواقعي والحدث الفعلي أي تخفيف حدة الاعتراف من جانب آخر .

وتكمن علة (أدب الاعتراف) في علة الشجاعة على الاغلب ، تلك الشجاعة التي تدفع الكاتب أن يقول كل ما لديه بصدق بعيداً عن الزيف الذي يحرّف الحقائق المجردة عن مدلولاتها شريطة أن لا يكون صدقه جارحاً أو فجاً ، ولأن الصدق يجرح والاعتراف يسيء للذات وللآخرين في آن واحد ، كان (الترهل) لازماً لتغطية الحدود التي بلغها المبضع دون تجنٍ على مهمة الاعتراف . (١٢)

وللدلالة على الفرق بين السيرة الذاتية (أدب الاعتراف) والسرد المتخيل Fiction على المستوى الفني والايديولوجي يمكن القول ان مفهوم السرد يقوم على دعامتين أساسيتين هما :

أولاً : أن يحتوي على قصة ما ، تضمُ أحداثاً معينة

وثانيتهما : أن يُعيّن الطريقة التي تُحكى بها تلك القصة ، وتسمى هذه الطريقة سرداً ، وذلك أن قصة واحدةً يمكن أن تُحكى بطرق متعددة ، ولهذا السبب فإن السرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط القص بشكل أساسي .

وهناك نمطين من السرد : ((سرد موضوعي (objective) وسرد ذاتي (subjective) وهو ما ذهب اليه ((توماتشفسكي)) ، ففي نظام السرد الموضوعي يكون الكاتب مطلعاً على كل شيء ، حتى الافكار السردية للابطال .

اما في نظام السرد الذاتي فاننا نتتبع القص من خلال عيني الراوي (أو طرف مستمع) متوفرين على تفسير لكل خبر متى وكيف عرفه الراوي او المستمع نفسه . (١٣)

إنّ (أدب الاعتراف) يقوم في سرده على التداعي واستخدام (تيار الوعي) في سرد الاحداث ، والكاتب لابد أن يلجأ الى عدد من الاساليب التي تمنح الرؤية الذاتية تماسكاً محكماً في البناء والسرد ، فالسيرة الذاتية ليست رواية جيدة ضرورة بل انّها غالباً ما تصبح واحدة من الانماط السردية الفضفاضة التي ينفذها التسلسل التاريخي من الاختفاء كلية عن (ساحة الرواية) .

ولا يتوقف علم السرد عند النصوص الادبية التي تقوم على عنصر القص بمفهومه التقليدي بل يتعدى ذلك الى أنواع أخرى تتضمن السرد بأشكال مختلفة نحو : الاعمال الفنية من لوحات ، وأفلام سينمائية ، وايماءات ، وصور متحركة ، وكذلك الدعايات والاعلانات وغير ذلك ، ففي كل هذه ثمة قصص تُحكى وإن لم يكن بالطريقة المعتادة . (١٤)

إنّ (أدب الاعتراف) هو نوع من الادب يجمع بين التحري التاريخي والاجتماع القصصي ، ويراد به درس حياة فرد من الافراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته ، وكاتب السيرة الذاتية الذاتية يكون قريباً الى قلب المتلقي ، لأنه انما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطة ما بينه وبين ذلك المتلقي ، وأن يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته ، وتجربة طه حسين في كتابه (الايام) كما يذهب عباس العقاد ولها مكانة لا تتطاول اليها أيُّ سيرة ذاتية أخرى في أدبنا العربي . (١٥)

ويُفَضِّل الكاتب أن يكتب سيرته الذاتية في زيٍّ روائي مستفيداً من هذه الحرية التي تمنحها له تقنيات الرواية ، فيجرؤ على أن يُدلي بما لم يكن في استطاعته أن يُدْلي به لو أنهُ كتب اعترافاً مباشراً (١٦) ، وهذا ما يمكن أن نتلمس أثره في (

الايام) لأديبنا طه حسين والتي صنفت ضمن عالم الرواية على الرغم من أنها تستمد موضوعها من حياة الكاتب الواقعية والتي سرد أحداثها وشخوصها من خلال وجهة نظر الراوي point of view : ((كان مطمئناً الى أن الدنيا تنتهي عن يمينه بهذه القناة التي لم يكن بينه وبينها إلاّ خطوات معدودة ....)) . (١٧)

ونقصد بـ ((وجهة نظر الرواي)) هي طريقة سرد النتاج القصصي أو الروائي ، وهناك شكلان أساسيان من اشكال السرد الذي يعتمد على الراوي : الشكل الأول هو التجرد الموضوعي التام عن الشخوص والاحداث ، وفيها يكون الراوي شخصاً خارجاً عن تطاق الحدث . والشكل الثاني هو أن يكون الراوي أحد شخوص العمل القصصي يقدم الينا تفسيره وتأويله للأحداث من خلال وجهة نظره الشخصية . (١٨)

وهذا ما يمكن أن نجد اه آثاراً جليةً في كتاب (الايام) :

((ذهب في ذلك اليوم وصعد في المنارة ، واشترك في الأذان وصلى . وأراد أن يعود الى البيت . ولكنه افتقد نَعْله فلم يجدها كان قد وضعها الى جانب المنارة ، فلما فرغ من الصلاة ذهب يلتمسها فإذا هي قد سُرِقَت . أحزنه ذلك بعض الشيء ، ولكنه كان فرحاً مبتهجاً هذا اليوم ، فلم يجزع ولم يُقَدِّر للأمر عاقبة ، وعاد الى البت حافياً ....)) (١٩)

فالراوي يقدم لنا شخصية (الطفل – الكاتب) وحادثة فقدانه لحذائه عند فراغه من الصلاة وشعوره بالحزن لفقده ثم ابتهاجه وعدم جزعه وعودته الى البيت حافياً ، والراوي ينقل لنا صورة (واقعية – نفسية) لذلك الطفل الذي لم يكن غير الكاتب في طفولته فهو - أي الكاتب - يقدم لنا هذه الحادثة من خلال ((وجهة نظر الرواي)) بطريقة السرد مستفيداً من المنجز تقنيات السرد الروائي في سرد حوادث شخصية مرت في طفولته ولم يجد غير الرواية يرسم بها لوحة مرت في حياته ووجدت لها حيزاً في سطور سيرته .

وفعل السرد يُعبّر عن نمط اجتماعي في المبادلات اللغوية بين المخاطِب (بكسر الطاء) والمخاطَب (بفتح الطاء) ، فهو يتطرق الى الطابع الاجرائي والدينامي المنتج للحبكة الروائية ، وهذه الاخيرة تُعَدّ مع (الحكاية التخييلية) شمولية زمنية اذ أن العلاقة العضوية بين الكل والاجزاء تتغلب على العلاقة الجمعية على وفق خطية تصاعد الحدث الروائي ، فالرواية تصبح موضوع تحليل بوصفها نسقاً منظماً من العلامات والسرد يحقق الفهم وعلى أرضيته يتم انتاج المعنى [٢٠] فـ ((التاريخ والتراث والسرد هي كلها الوسط الذي يحيا فيه المعنى)) [٢١]

إن تقابل الشخوص في (أدب الاعتراف) يتيح للروائي الخروج من مأزقي التجربة المأزومة غير المحلولة أولاً ، والتكرار الممل في المتابعة الزمنية لرصد حياة الشخص المعني في السيرة الذاتية ثانياً ، وهكذا كان المأزق الفعلي في رواية طه حسين (الايام) اذ أُتيح للكاتب الخلاص من التكرار الممل بحكم اعتماده المقابلة والتعارض في (التشخيص) ، الامر الذي يتيح للمتلقي جمع معلوماته عن الشخوص بطرائق أقل مباشرة على الرغم من نزوع الكاتب للتدخل والتحليل والتفسير ، واذا كان (الشخوص المتضادون) و (الاهواء المتعارضة) يجتمعون في تكوين بؤر الرواية ، فإنّ هذه البؤر هي التي تمتلك تناغماً حياتياً ، وليس الشخوص أنفسهم ، وهذا امر يصدق على (الشخصية المركزية) وهو (الصبي – الكاتب) ، تلك الشخصية التي تجد لعصابيتها البدائية (خلاصها) في الكتابة الابداعية أي الكتابة التي تتيح في النتيجة اطلاق رؤية نظامية على واقع يخلو من التناغم والانسجام .

ولم يكن الموقع المتقابل اقل فائدة في (الايام) ، فمنطقة طفولة الكاتب تقترن بحياة بدائية فيها الرتابة والعفوية والاكتظاظ في آنٍ واحد ، لكنها بمثابة دنيا الربيع او مرتع الطفولة على الرغم من أنها تنطوي على قسوة في العيش وشظف

في المأكل والملبس ومرارة في غياب مباهج الدنيا من الالوان والالعاب لطفل كفيف في بيئة تضج بصخب الاطفال ومشاكستهم ودعاباتهم السمجة له ، والتي تثير في نفسه ألواناً من المشاعر والأسى والحزن .

ويستمر تنويع طه حسين على المواقع المتقابلة والمتعارضة في لقطات سينمية كانت تمنح الرواية تماسكاً هي بأشد الحاجة اليه .

وسواء كان طه حسين يلجأ الى الدالة والرمز بحكم التأثيرات السائدة حينئذ أو أنه أخذ قليلاً من التجربة ليوظفه في نسيج عمله الكلي ، فانه يستخدم أسالیباً فنية يستقيها من منابع عديدة ويوظفها باقتدار ، فتارةً يستخدم عنصراً من فن المقامة ، ومرة من فن الملحمة ، وحيناً من الرواية التاريخية التقليدية ، لكنه لا يكاد يدنو خطوة من هذه الانواع القصصية حتى يبتعد عنها خطوات شاقاً لعمله طريقاً جديداً كل الجدّة .

والكاتب لا يكتفي بأساليب القصص القديمة بل نراه يوظف أسالیباً فنية حديثة نحو : تيار الوعي والتداعي والتذكر ، كما يستند الى الرموز المنوعة والسخرية الناعمة والنسيج اللغوي وانعكاساتها على بناء الرواية ، وحركة الشخوص وفعلها المؤثر في نفس المتلقي :

((ولم يظهر الصبيُّ في هذه الليلة على المائدة ، ومكث ثلاثة أيام يتجنب مجلس أبيه ويتجنب المائدة ، حتى اذا كان اليومُ الرابع دخل أبوه عليه في المطبخ حيث كان يحب أن ينزوي الى جانب الفُرْن ؛ فما زال يكلمُه في دُعابة وعطف ورفق حتى أنِسَ الصبيّ اليه ، وانطلق وجهُه بعد عبوسه . وأخذه أبوه بيده فأجلسه مكانه من المائدة ، وعُني به اثناء الغداء عنايةً خاصةً ، حتى اذا فرغ الصبي من طعامه ونهض لينصرف ، قال أبوه هذه الجملة في مُزاحٍ قاسٍ لم يَنْسَهُ قطّ ، لأنه أضحك منه اخوته جميعاً ، ولأنهم حفِظوها له ، وأخذوا يغيظونه بها من حينٍ الى حين ...)) [٢٢]

إن ما يجب الاشارة اليه في تطابق (السارد والكاتب) في رواية ((الايام)) يجعل من هذه الرواية رواية ترجمة ذاتية يرجح هذا العنوان – سيرة ذاتية – تحتم على المتلقي أن ينتبه الى وجود حيوات اخرى كثيرة منبثة في ثنايا الرواية ، فضلاً عن عدم نمو السارد او انتقاله من موقف الى آخر ، وأهم من هذا ان الرواية لا تركز عدستها على حياة السارد بل تهتم بتصوير المناخ الذي نشأ به السارد .

((وكيف لا يبتهج وقد أحسّ منذ اليوم الاول أنه ارتفع درجات ؛ أصبح ((سيِّدنا)) لا يستطيع أن يُشرِفَ على حفظه للألفية ولا أن يُقرئه اياها ، بل ضاق الكتاب كله بالألفية . وكلّفَ الصبيُّ أن يذهب في كل يومٍ الى المحكمة الشرعية ؛ ليقرأ على القاضي ما يريد أن يحفظه من الالفية . القاضي عالمٌ من علماء الازهر ، أكبر من أخيه الازهري ، وإن كان أبوه لا يؤمن بذلك ، ولا يرى أن القاضي يكافىء ابنه . وهو على كل حال عالمٌ من علماء الازهر ...)) [٢٣]

وقد اهتمت (الايام) ببروز العلاقة بين (الأنا والآخر) بشكل ملحوظ ، فالسارد يدرك أن الحرية المطلقة التي يسعى للوصول اليها لا تتحقق من خلال التحرر من الآخرين فقط ، بل لابُد من التحرر من نفسه أيضاً ُ :

((وما هي إلا أيام حتى سئم لقب الشيخ وكره أن يُدعى به ، وأحسّ أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الانسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الابوة والامومة لا تعصِم الاب والام من الكذب والعبث والخداع)) [٢٤]

إن دراسة (أدب الاعتراف) تستلزم دراسة اوسع ما يمكن أن تكون مشروع رسالة جامعية تحيط بكل جوانب هذا النوع من الادب وتبيان سماته الفنية والموضوعية في أدبنا العربي وتسليط الضوء على هذا النوع الادبي وكشف خباياه اذ ان هناك أنموذجات مثلت تطوراً في هذا الفن الذي بقي بعيداً عن الدراسات الاكاديمية ، وهو موضوع يستنهض همم باحثينا في دراسته دراسة شاملة لتبيان

سماته وعوالمه والكشف عن ميزات ابداع ادبائنا العرب في هذا المضمار الادبي من فنون الادب العربي .

الهـوامش :-

١.تجارب في القراءة : خيري منصور ، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦ م ، ص ٥١ .

٢.م . ن : (٥٢-٥٣) .

٣.م . ن : ٦٠ .

٤. الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث / الجزء الثاني / حنا الفاخوري ، منشورات ذوي القربى ، ط ٢ ، ١٣٨٢ هـ ، ص ٣٣٥ .

٥. ينظر الأيام : طه حسين ، دار المعارف بمصر ، ط ٥٥ ، ١٩٧٧ م (المجموعة الكاملة) .

٦. الأيام : ٢٤٠-٢٤١ .

٧. م . ن :٢٤٣ .

٨. م . ن :٤٣٢ .

٩. م . ن :٦٨٩ .

١٠. ينظر التخلف الاجتماعي (مدخل ١) سيكولوجية الإنسان المقهور : د .مصطفى حجازي – معهد الإنماء العربي – ط١ ، بيروت ١٩٧٦ م ، ص ١٤٩.

١١. أنماط الرواية العربية الجديدة : أ .د . شكري عزيز الماضي ، عالم المعرفة ، الكويت ، ٢٠٠٨ م ، ص ٢١ .

١٢. ينظر عصر الرواية (مقال في النوع الادبي) : للدكتور محسن جاسم الموسوي ، ص ١٦٤ .

١٣. ينظر نظرية المنهج الشكلي – نصوص الشكلانيين الروس – ترجمة ابراهيم الخطيب ، مؤسسة الابحاث العربية ، ط١ ، ١٩٨٢ م ، ص ١٨٩ .

١٤. ينظر دليل الناقد الادبي : د. ميجان الرويلي و د. سعيد البازعي ، ص ١٠٤ .

١٥. ينظر المعجم الادبي : جبور عبد النور (١٤٢-١٤٣) .

١٦. م . ن : ١٤٢ .

١٧. الايام : ١٢ .

١٨.ينظر النقد التطبيقي : د. عدنان خالد عبد الله ، ص ٨٥ .

١٩.الايام : ١ ، ص ٥٦ .

٢٠.تأويلات وتفكيكات (فصول في الفكر العربي المعاصر) : محمد شوقي الزين ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط ١ ، ٢٠٠٢ م ، ص٨١ .

٢١.من النهضة الى ما بعد الحداثة : جيلبرت هوتوا ، منشورات دوبوك الجامعية ، ١٩٩٧ م ، ص ٣٥٨ ، وينظر بنية النص السردي : د. حميد الحمداني ، ص ٤٥ .

٢٢.الايام : ١ ، ص ٦٢ .

٢٣.م . ن : ١ ، ص ٧٣ .

٢٤.م . ن : ١ ، ص ٣٨ .

المصادر:

١.تجارب في القراءة : خيري منصور ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ م .

٢. التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور) : أ .د مصطفى حجازي ، معهد الإنماء العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٦ م .
٣. الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث) / ج٢ ، منشورات ذوي القربى ، ط ٢ ، ١٣٨٢ هـ .
٤. المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ م .
٥. الأيام : طه حسين ، دار المعارف بمصر ، ط ٥٥ ، ١٩٧٧م .
٦. أنماط الرواية العربية الجديدة : أ .د شكري عزيز الماضي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ٢٠٠٨ م .
٧. عصر الرواية (مقال في النوع الادبي) : للدكتور محسن جاسم الموسوي ، منشورات مكتبة التحرير ، ط ١ ، بغداد ، ١٩٨٥ م .
٨. نظرية المنهج الشكلي – نصوص الشكلانيين الروس – ترجمة ابراهيم الخطيب ، مؤسسة الابحاث العربية ، ط١ ، ١٩٨٢ م .
٩. دليل الناقد الادبي : د. ميجان الرويلي و د. سعيد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، ط ٢ ، ٢٠٠٠ م .
١٠. المعجم الادبي : جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٩ م .
١١. النقد التطبيقي التحليلي : للدكتور عدنان خالد عبد الله ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، (د . ت) .
١٢. تأويلات وتفكيكات (فصول في الفكر العربي المعاصر) : محمد شوقي الزين ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط ١ ، ٢٠٠٢ م .

١٣.مـن النهضـة الـى مـا بعـد الحداثـة : جيلبـرت هوتـوا ، منشـورات دوبـوك الجامعية ، ١٩٩٧ م .
١٤.بنيـة الـنص السـردي – مـن منظـور النقـد الادبـي : د. حميـد الحمـداني ، المركز الثقافي العربي ، ط ٢ ، ١٩٩٣ م .